الفصل السابع

خاتم الأولياء

تحت هذا العنوان نأتي إلى خاتم فصول هذه الرسالة ، حيث تنتظرنا عدة مسائل كانت مثار كثير من المناقشات ، بل مبعث كثير من الشكوك والتأويلات ، وكتاب الترمذي بهذا العنوان كان أحد كتابين استند إليهما خصومه في الوشاية به ، وتوجيه الاتهامات إليه ، وتحريض العامة عليه ، حتى خرج من ترمذ إلى بلخ ، فقد روى الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[1] ، عن السلمي أن الترمذي نفي من ترمذ بسبب كتابين ألفهما بها ، هما «ختم الولاية» و«علل الشريعة» ولأنه كان يذهب إلى أن للأولياء خاتمًا ، كما أن للأنبياء خاتمًا ، فقالوا : إنه فضل الولاية على النبوة ، وإنه احتج بقول رسول الله ﷺ «يغبطهم النبيون والشهداء» وقال : لو لم يكونوا أفضل منهم لما غبطوهم .

وفي غيبة كتاب «ختم الأولياء» عن أيدي الباحثين ذهبت ظنونهم بالحكيم الترمذي كل مذهب ، اعتمادًا على هذه النقول ، وأقرب مثال لذلك ما ذكره الدكتور علي عبد القادر وأربري في مقدمتهما لكتابي الرياضة وأدب النفس الذي نشر بإخراجهما عام ١٩٤٧م ، فقد استنتجا أن الحكيم الترمذي يرى أن الولاية ـ وهي القربة إلى الله تعالى ـ تعم المؤمنين ، وأن هنالك ولاية خاصة ذات درجات ومنازل، وأن من الولاية ولاية الأنبياء والمرسلين، وأن ولاية النبي أفضل من نبوته ، من حيث إن نبوة التشريع متعلقة بمصلحة الوقت ، والولاية لا تعلق لها بوقت ، كما أن النبوة صفة الخلق دون الحق ،

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٧ ، وانظر أيضًا «طبقات الشافعية» للسبكي جـ ٢ ص ٢٤٥ .

ثم يقولان في هذه المقدمة «وكما أن النبوة تمثل دائرة متألفة في الخارج من نقط وجود الأنبياء، كاملة بوجرد النقطة المحمدية، فالولاية أيضًا دائرة متألفة في الخارج من نقط وجود الأولياء كاملة بوجود النقطة التي تختم بها الولاية. فالنبوة لها خاتم يكملها، والولاية كذلك لها خاتم يكملها.

«هذا هو السبب في وجود الخاتم، وبقي أن نعرف ما هو الخاتم، وظاهر كلام الترمذي أن الخاتم مقام يستحقه الولي حيث (يناوله مفاتيح الكرم وخزائن المنن)، والمفروض على هذا أن يكون محمد خاتم الأولياء، فهو (صاحب المقام المحمود، وصاحب المغفرة) كما هو خاتم الأنبياء، وعلى هذا يكون المراد بالخاتم (الإنسان الكامل) ..... ولكنا إذا اعتبرنا الخاتم بمعنى الكامل، لا الآخر، والمفروض أن الولاية قائمة إلى قيام الساعة، فكيف يمكن أن يستقيم هذا في خاتم الأنبياء، وهل يجوز أن يبقى باب النبوة مفتوحًا، كما أن باب الولاية مفتوح ؟؟ هذه هي نقطة الخطر والغموض في هذا المذهب» ثم تسترسل المقدمة فتقول: «أما إذا أردنا بالخاتم الآخر، كما هو المتبادر، فلا يكون محمد خاتم الأولياء، ما دامت الولاية مستمرة بعده، ولكن من عسى أن يكون خاتم الأولياء غير محمد ؟ ألا يجوز أن يكون هذا الخاتم أفضل من خاتم الأنبياء ؟ ما دامت الولاية - في طبيعتها - أفضل من النبوة ؟؟ وهذا أيضًا موضع خطر بالنسبة لهذا التفسير الأخير» ثم يعلقان بقولهما: «وأيًا كان الأمر، فليس من شك في أن هذا المذهب كان محل نقاش وجدال في الأوساط العلمية وغيرها في بلده، وكان سببًا لطرده منها، وما قاله السمي من عدم فهم الناس له إنما هو حسن اعتذار، وإلا فالموضوع مهما قلبناه على أية ناحية من نواحيه يسوق إلى نتائج لا يوافق عليها الرأي العام الإسلامي، سواء في ذلك (١) تفضيله الولاية على النبوة، أو (٢) اختصاص الولي بما ليس عند النبي، أو (٣) القول في الخاتم»[1].

---

(١) ص ٢٤-٢٦.

وعلى الرغم من أنهما لم يقبلا اعتذار السلمي عنه بعدم فهم الناس له ، فإننا نجد ابن تيمية أكثر اعتدالاً عند معالجته لفكرة خاتم الأولياء وعند مناقشته للحكيم الترمذي ، ولكنه يوجه أكثر لائمته وأشدها على من رأى أنهم غلوا في هذه الفكرة ، واستغلوها من بعده ، فيقول « وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء قياسًا على خاتم الأنبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي ، فإنه صنف مصنفًا غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهتم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، من جهة العلم بالله ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما يزعم ذلك ابن عربي .....»[1].

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء ، لأن ما فيها سوف يتضح من خلال عرضنا ومناقشتنا لرأي الحكيم الترمذي نفسه ، ولكننا أوردناها لكي نلقي ضوءًا كافيا على ما يمكن أن يتبادر إلى الأذهان عند مناقشة هذه الفكرة ، ونبين مدى أهميتها لدى جمهور المسلمين عامة ، والباحثين منهم خاصة . ولعل مما يزيل بعض اللبس أن نبدأ بعرض فكرة الحكيم بشأن المفاضلة بين الأنبياء والأولياء ، لنتدرج منها إلى خاتم الأولياء وبيان شأنه وصفته ومرتبته حتى يتبين لنا إن كان هنالك أساس يعتمد عليه في توجيه التهمة إليه أو نفيها عنه .

ومن المعلوم أنه ينبغي أن لا تبتر قضية عن موضعها وسياقها ، وأن لا يؤخذ رأي في بناء مذهب من المذاهب فنقطعه عن باقي البناء لنقول إنه يمثل هذا البناء ، وأننا نحكم على المذهب كله بحكمنا على هذا الرأي ، فإن هذا نوع من التحريف لا يليق بالبحث العلمي .

لقد عرفنا من قبل كيف تتصاعد المراتب الروحية في حلقات متتابعة

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٤ .

لا نكاد نبصر خلالها فجوات ، ابتداء من أول خطوة ، وهي التوحيد إلى أرقى مرتبة وهي الرسالة ، كما لاحظنا أن ذلك لا يعني أن كل حلقة منها تسلم إلى الحلقة الأرقى تلقائيًا حسب شروط وأحوال ينبغي تحققها في السالك لهذا الطريق ، بل إن كل درجة أو منزلة أو مقام مرهون برحمة الله ومنته ومشيئته ، فهنالك فوارق غير مرئية ، لا يستطيع السالك أن يتحكم فيها ، أو أن يجتازها بجهده أو سعيه أو نشاطه الروحي ، لذلك كان عدد القائمين بكل منزلة أدنى من عدد القائمين فيما دونها من المراتب ، حيث يتناسب العدد مع علو المرتبة تناسبًا عكسيًا ، فجعلهم الله طبقات « فمنهم أنبياء ورسل ، ومنهم أنبياء ، ومنهم أولياء مجتبون ، ومنهم أولياء ، فقدم في كل طبقة منه بعضًا ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، كل إنما يتقدم بحظه من ربه »[1] « فالأقل من كل صنف هو الأعز ، ألا ترى أن المؤمنين قليل في الكافرين ، والأتقياء قليل في المؤمنين ، والأولياء قليل في الأتقياء ، والأنبياء قليل في الأولياء ، والرسل عليهم السلام قليل في الأنبياء »[2] ذلك لأن لله « من كل جنس صفوة ، فالعرش صفوته من الأمكنة ، وعدن صفوته من الجنان ، والكعبة صفوته من البيوت ، والأمناء صفوته من الملائكة ، والأنبياء صفوته من الأولياء ، والأولياء صفوته من الزاهدين ، والزهاد صفوته من العاملين ، [والعاملون صفوته] من الراغبين والراغبون صفوته من الآدميين »[3].

وهذا كله يدل على أن مراتب الأنبياء ومرتبة النبوة أعلى وأرقى وأسمى وأفضل من مراتب الأولياء ومرتبة الولاية مهما تعل أو ترق أو تسم أو تكتمل ، ومع ذلك فقد لا يبدو هنا التفريق بين مرتبة الولاية ومرتبة النبوة بقدر ما يبدو تسلسل المراتب وتدرجها ووضع مرتبة النبوة في درجة

---

(١) كيفية خلق الإنسان ص ١٧٩ ب - ١٨٠ أ .

(٢) علم الأولياء ص ٦٢ ب .

(٣) في بيان المفردين ص ١٨٦ أ من مخطوطة ولي الدين وص ٤٧ ب من مخطوطة أسعد أفندي .

أعلى وأفضل ، لكنه في نصوص أخرى يبين في صراحة ووضوح أن مقام النبيين يختلف عن مقام الأولياء ، وأن طريق الأنبياء مغايرة لطريق الأولياء ، فيجتمع ـ في ذلك ـ التغاير والتفاضل معًا ، ويبين ـ من ذلك ـ أنه يرى أن للأنبياء عقدة النبوة ، وأن للأولياء عقدة الولاية ، وأن كلا منهما تختلف عن الأخرى ، وأن عقدة النبوة أفضل من عقدة الولاية ، يقول[1] عند شرحه لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : أحشر أنا وأبو بكر وعمر هكذا ، وأخرج السبابة والوسطى والبنصر : « وروى لنا عن أصابع رسول الله ﷺ أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، والبنصر أقصر من الوسطى ، وذكر المنازل والإشراف على الخلق ، وأن رسول الله ﷺ أعلاهم إشرافًا ، ثم من بعده أبو بكر دون رسول الله ﷺ فوق عمر ، ثم من بعده عمر دون أبي بكر رضي الله عنهما ، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله ﷺ حمل تأويل هذا الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض ، وهذا معنى بعيد ، لأن حشر رسول الله ﷺ حشر الرسل عليهم السلام ، وحشر أبي بكر وعمر حشر الصديقين رضوان الله عليهم أجمعين ، وكذلك مقامه في العرصات ، هو في مقام النبيين ، ومقامهما من العرصات مقام الصديقين » فهو ـ إذن ـ يفرق بين عقدة النبوة وعقدة الولاية ، وهو يفضل عقدة النبوة ويرفعها درجات على عقدة الولاية ، ثم هو ـ بعد ذلك ـ لا يجد مجالاً للمقارنة أو المفاضلة بين الولي والنبي ، لأن عقدة كل منهما من واد مختلف ، نعم تمكن المفاضلة بين الولي والولي ، وبين النبي والنبي ، عند من تكون لديه وسائل المفاضلة ، أما بين النبي والولي فلا ، لأن الميزان غير متحد ، والمقياس غير متفق ، فالنبوة ـ وهي عقدة الأنبياء ـ غير الولاية التي هي عقدة الأولياء ، لأن الله ولي « الأنبياء بأن أخذهم من نفوسهم إلى محل النبوة وكشف الغطاء ، وولى هذا الصنف من الأولياء بأن أخذهم من نفوسهم إلى محل الولاية وكشف الغطاء ، فهؤلاء في عقدة ، وهؤلاء في عقدة »[2] . ومن المؤكد أن مكانة الأنبياء قد فاقت مكانة الأولياء وبانت عنها بونًا بعيدًا ،

---

(١) نوادر الأصول ص ٣٨ .

(٢) ختم الأولياء ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

فإن «لطمأنينة الأنبياء صلوات الله عليهم وقناعتهم ورضاهم وأمانتهم وموافقتهم غور بعيد لا يشبه شيئًا مما عند الأولياء ، قد بان هؤلاء بنبوتهم ومكانتهم في القربة [عمن] بعدهم من الأولياء بونًا بعيدًا»[1].

وليس لنا بعد هذه النصوص التي نقلناها عن مختلف كتب الحكيم الترمذي ورسائله أن نعارضها بما يمكن أن نستنتجه من بعض عباراته ، فإن الاستنتاجات لا يمكن أن تقف أمام التصريحات ، كما أنه لا يمكن أن ندعي أن هذه التصريحات إنما قصد بها التغطية على موقف معين يفهم من ثنايا المذهب منطقيًا ، لأن ذلك قد يكون صحيحًا بشأن تصريح واحد أو اثنين ، أما أن يتكرر مثل ذلك التصريح وبصورة متكاملة كما رأيناها ، فلا تقبل مثل هذه الدعوى فيه .

وعلى ذلك نستطيع أن نلقي ضوءًا كافيًا على ما قيل عنه إنه مستند لمن اتهمه بأنه فضل الولاية على النبوة ، لأنه احتج بقول رسول الله ﷺ : «يغبطهم النبيون والشهداء» وقال : لو لم يكونوا أفضل لما غبطوهم . ولنورد نحن نص الحكيم الترمذي في هذا الموضوع ، فقد قال بعد أن ناقش بعض مدعي الصدق من القراء في إنكارهم على الأولياء ما اختصهم الله به بأنهم يقيسون هذه الأمور على ما يرونه من أنفسهم، وهم في عمى عن علم منن الله تعالى، وحظوظه لخاصته ، ومحبته إياهم ورأفته لهم ، فإذا سمعوا عن شيء من ذلك تحيروا وأنكروا ، قال[2] : «ثم هم يروون الأخبار عن رسول الله ﷺ «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء لمكانهم وقربهم من الله عز وجل» و«ليتمنين اثنا عشر نبيًا أنهم كانوا من أمتي» ، «لو أقسمت لبررت أن لا يدخل قبل سابقي أمتي الجنة إلا بضعة عشر ، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ومريم ابنة عمران» فإذا رأوا هذه الأخبار سمحوا ، وإذا صاروا إلى الإشارات وإلى المنصوص من الناس

---

(١) كيفية خلق الإنسان ص ١٨٠ ب .

(٢) ختم الأولياء ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

جحدوا ، فهل هذا إلا من الحسد !؟ فصار مثالهم في هذا كما قال الله تعالى في تنزيله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام:٣٣) كانوا يتحدثون فيما بينهم بمبعث نبي يخرج على دين إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه ، فلما جاءهم محمد ﷺ جحدوه .

« قال له قائل : أليس في هذه الأخبار ما يدل على تفضيل من دون الأنبياء على الأنبياء ؟ .

« قال : معاذ الله أن يكون كذلك ، ليس لأحد أن يفضل على الأنبياء أحدًا لفضل نبوتهم ومحلهم .

« قال [له قائل] : فلم يغبطهم النبيون وليسوا بأفضل منهم ؟؟

« قال : قد فسره في الخبر ، وذلك لقربهم ومكانهم من الله».

فليس في هذا النص ما يشير إلى أن الحكيم يفضل الولاية على النبوة ، بل أي ولي على أي نبي ، وإذا كان القائل له قد أراد أن يستنتج مثل هذا المعنى مما أورده من الأخبار ، فإن الحكيم الترمذي قد استعاذ بالله من ذلك ، فهل يمكن لنا أن نأخذ الحكيم بما أراد أن يستنتجه هذا القائل ولم يتم له ؟ وقد أنكره الحكيم دون تريث ؟ لا غرو إذن أن نجد ابن تيمية في نصه السابق لا يوجه هذه التهمة إلى الحكيم الترمذي كما فعل الآخرون ، وإنما يوجهها إلى طائفة من المتأخرين الذين اعتمدوا على قول الحكيم الترمذي في خاتم الأولياء « فصار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله... »[1].

---

(١) وتحقيق هذه المسألة والمقارنة بين فكرة الحكيم الترمذي وما صارت إليه عند هؤلاء المتأخرين تحتاج إلى بحث مطول نرجو أن يوفقنا الله للقيام به .

ولعل هذه المسألة في مذهب الحكيم قد أصبحت واضحة محددة المعالم بحيث يمكن القول ـ بكل ثقة ـ إن الحكيم يضع حدودًا فارقة بين النبوة والولاية ، وإنه يضع النبوة في منزلتها اللائقة بها فوق منزلة الولاية ، وإنه لا يفضل أي ولي مهما تكن مكانته ورتبته في الولاية على أي نبي مهما تكن مكانته ومنزلته من النبوة[1]. وهو لم ينتظر أحدًا ليحكم على من يخالف هذا الحكم بالمروق من الدين ، ولكنه أصدر حكمه في ذلك جزمًا في نص يحسم هذا الموقف تمامًا ، بحيث لا نحتاج معه إلى مزيد ، فيقول[2] : « ومن شك في هذا ، فلم يعلم أنه ليس [لـ] أحد من أمته ﷺ [ما] كان له فهو شاك كافر ».

بذلك وضعنا الحدود الفاصلة التي تحفظ لكل ذي مقام مقامه دون خلط أو التباس .

أما من حيث تدرج المقامات الروحية ، فإن مقامات الأولياء قد تصل إلى أن تكون دون مقام الأنبياء مباشرة ، ولكنها لا تلتبس به . ولقد عرفنا أن طريق الأنبياء غير الطريق العامة للأولياء ، لأن طريق الأنبياء هو طريق الجباية بمشيئته تعالى ، أما طريق الأولياء التي يسلكونها فهي طريق الإنابة « فطريق الأنبياء طريق مختص ، وطريق الأولياء طريق الجادة التي شرعها الله لعباده على الصدق والوفاء بتطهير القلوب وتصفية الأخلاق حتى يصلوا إليه »[3] لكن هنالك طائفة أخرى من الأولياء اجتباهم الله على طريق الأنبياء ، فجذب قلوبهم إليه جذبًا ، وهم بين طائفة الأولياء ـ أولياء الإنابة ـ وطائفة الأنبياء ، لأنهم جذبوا إليه على طريق الأنبياء ، ولكنهم لم يبلغوا مرتبة النبوة ، فهؤلاء قد أقامهم الله ـ كما يقول الترمذي ـ « فيما بين الأنبياء والأولياء ، فهم من الأنبياء على الأذن قربًا ، والأولياء على الأقفية ، فهم أكبر انتباهًا ويقظة ، وأبصر بطريق الأنبياء ، لأنهم ساروا على ذلك الطريق

---

(١) ولسوف نجد مصداقًا لذلك كلما تقدمنا في هذا الفصل .

(٢) الرد على الرافضة ص ٨٦ أ .

(٣) شفاء العلل ص ٥ أ - ٦ أ وانظر أيضًا نوادر الأصول ص ١٧٤ .

مجذوبين ، فهم المنفردون الذين غرقت قلوبهم في وحدانيته ، وانفردوا عن الأشياء ، فهم المحدثون »[1].

وهؤلاء ـ على ما يرى الحكيم ـ هم تابعو محمد ﷺ الذين ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف:١٠٨) لأنهم جذبوا على طريقهم فساروا خلفهم في هذا السبيل فهم لذلك يدعون إلى الله كما ذكرت الآية ، لا إلىَ سبيله فحسب ، لأن الدعاة إلى الله ـ فردًا ـ أعلى وأرقى من الدعاة إلىَ سبيل الله ، فالدعاة إلى الله « عن آلائه ينطقون ، وعن تدبيره يكشفون ، وعن فردانيته يذكرون ، والآخرون دعاؤهم إلى سبيلة بالحكمة والموعظة الحسنة ، يكشفون عن عورات النفوس ودواهيها ، وعبث الحياة الدنيا وخدعها وغرورها ، وطلب الصدق من القلوب ..... »[2].

وهؤلاء الأولياء ـ كما عرفنا ـ هم الذين انتقلوا في ملكوت الأسماء من ملك إلى ملك حتى وصلوا إلى ملك الملك بين يديه ، وعلى قدر ما يعطى الولي من ملكوت الأسماء على قدر ما يكون حظه من ربه .

وما نزال نرقى مع الأولياء درجة درجة حتى نصل إلى هذا الولي الذي حاز حظه من جميع الأسماء ، فهو محظوظ من ربه ، وهو خاتم الأولياء ، وليس وراء ذلك للأولياء مذهب ، لأنه إذا انتهى من أسمائه تعالى صار إلى الباطن الذي لا يدري ، لأنه قد انقطعت هنالك الصفات ، « فكلما تخطى إلى ملك أعطى ذلك الاسم ، حتى يكون الذي يتخطى جميع ذلك إلى ملك الوحدانية الفردانية هو الذي يأخذ حظوظه من الأسماء ، وهو محظوظ من ربه ، وهو سيد الأولياء ، وله ختم الولاية من ربه ، فإذا بلغ المنتهى من أسمائه فإلى أين يذهب ؟ وقد صار إلى الباطن الذي انقطعت عنه الصفات؟ ».

(١،٢) شفاء العلل ص ٥ أ - ٦ أ وانظر أيضًا نوادر الأصول ص ١٧٤ .

(٣) ختم الأولياء ص ٣٣٥ .

ومن هذا النص نستطيع أن ندرك معنى من معاني «خاتم الأولياء» ، إنه هو الذي يأخذ بجميع حظوظه حتى يبلغ المنتهي من الأسماء الإلهية ، ويتخطى ذلك إلى ملك الوحدانية الفردانية .

ولكي ندرك بقية المعاني التي يحتويها ، لا بد أن نذهب إلى الأصل الذي قيس عليه وهو «خاتم الأنبياء» لندرك معانيه في حدود مرتبة النبوة ، ثم نعود بعد ذلك إلى خاتم الأولياء لكي ندرك مثل هذ المعاني ، ولكن في حدود مرتبة الولاية .

لقد اختار الله من عباده أولياءه ، وفضل بعضهم على بعض ، كما اصطفى أنبياءه ، وفضل بعضهم على بعض ، وقد خص محمد ﷺ بما لم يؤتَ أحد من العالمين ، ومن هذه الخصوصيات ما ليس يدركه إلا أهل الخصوص ، ومنها ما ليس لأحد عنه محيص ولا محيد ، يقول الحكيم «وكان الله ولا شيء ، فجرى الذكر ، وظهر العلم ، وجرت المشيئة ، فأول ما بدأ بدأ ذكره ، ثم ظهر في العلم علمه ، ثم في المشيئة مشيئته ، ثم في المقادير هو الأول ، ثم في اللوح هو الأول ، ثم في الميثاق هو الأول ، ثم هو الأول يوم تنشق عنه الأرض ، ثم هو الأول في انخطاب ، والأول في الوفادة ، والأول في الشفاعة ، والأول في الجوار ، والأول في دخول الدار ، والأول في الزيارة ، فبهذا ساد الأنبياء عليهم السلام» ، وهذه من الخصوصيات التي لا يدركها إلا أهل خاصته تعالى ، «ثم خص بما لا يدفع ، وهو خاتم النبوة ، وهو حجة الله عز وجل على خلقه يوم الموقف ، فلم ينل هذا أحد من الأنبياء»[1].

وخاتم النبوة هو الحجة التي يبرزها الله على خلقه وعلى أنبيائه حين يطالبهم بالعبودة التي خلقهم لها ، فلا يبقى لأحد منهم حس ولا حركة من الرهبة والهيبة ، بينما يتقدم الرسول محمد ﷺ بقدم صدق على جميع صفوف الأنبياء والمرسلين مقدمًا صدق العبودية «فيقبله الله منه ، ويبعثه إلى

---

(١) ختم الأولياء ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

المقام المحمود عند الكرسي، فيكشف الغطاء عن ذلك الختم، فيحيطه النور، وشعاع ذلك الختم يبين عليه، وينبع من قلبه على لسانه من الثناء ما لم يسمع به أحد من خلقه، حتى يعلم الأنبياء كلهم أن محمدًا ﷺ كان أعلمهم بالله عز وجل، فهو أول خطيب، وأول شفيع، فيعطى لواء الحمد ومفاتيح الكرم» (ص٣٣٨) وكأنه يقول للأنبياء عليهم السلام «معاشر الأنبياء، هذا محمد، جاء في آخر الزمان، ضعيف البدن، ضعيف القوة ضعيف المعاش، قليل العمر، أتى بما قد ترون من صدق العبودة، وغزارة المعرفة والعلم، وأنتم في قواكم وأعماركم وأبدانكم لم تأتوا بما أتى، ويكشف الغطاء عن الختم، فينقطع الكلام، وتصير الحجة على جميع خلقه، لأن الشيء المختوم محروس»(ص٣٤٠) «فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لمحمد ﷺ، وتممها له، وختم عليها بختمه، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلاً إلى ولوج موضع النبوة من أجل ذلك الختم» (ص ٣٤٠) ولم يعد لأحد عليه سبيل في الانتقاص منه، ولا بالزيادة عليه مما ليس منه.

فنحن نجد أن ختم النبوة إنما يعني كمال الصدق في العبودة، وكمال العلم بالله، وذلك كله على مستوى النبوة وفي دائرتها.

ومما يوضح هذا المعنى ما عرفناه من قبل وكيف أن معرفة الله تعالى والعلم به إنما تتم بمعرفة أسمائه الحسنى، عن طريق التخلق بما تمنحه هذه الأسماء للعبد، فكمال علم الرسول ﷺ بالله تعالى إنما يكون بكمال خلقه، ولذلك يرى الحكيم الترمذي أن الله تعالى قد أخرج أخلاقه المائة والسبعة عشر لعباده، وقسمها على أسمائه العليا وأسمائه الحسنى، ثم «تفضل بها على عبيده، على قدر منازلهم عنده، فمنح أنبياءه منها، فمنهم من أعطاه منها خمسًا، ومنهم من أعطاه منها عشرًا أو عشرين، وأكثر من ذلك وأقل».

أما خاتم الأنبياء فقد أوتيها جميعًا، ولذلك فإنه يقدم على الله بجميع أخلاقه التي ذكرها، وهو يفسر بذلك ما روي عن رسول الله ﷺ من أنه قد

بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، يقول[1] « وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، فأنبأنا في قوله هذا أن الرسل قد مضت ولم تتمم هذه الأخلاق ، كأنه بقيت عليهم من هذا العدد بقية ، فأُمِر أن يتممها ، فأعلمنا في قوله هذا أن تلك الأخلاق التي كانت في الرسل فيه ، ثم هو هو مبعوث لإتمام ما بقي منها ، ليقدم على الله بجميع أخلاقه التي ذكرها ، مائة وسبعة عشر خلقًا ، فلا يجوز لنا أن نتوهم عليه أنه بعث لأمر فقدم على ربه وهو غير متمم له ».

ونحن وإن كنا نرى أن مقام النبوة لكافة الأنبياء أسمى من أن نجازف بالحديث عنه على هذه الصورة ، فإن غرضنا من ذكر ذلك هو بيان رأي الحكيم ، وفهمه لمعنى ختم النبوة ، وأن معناه الذي ذكرناه ، وهو كمال العبودة ، وكمال العلم بالله إنما يظهر بأوضح جلاء في تمثل أسماء الله الحسنى وأمثاله العلى دون أن يترك مجالاً لانتقاص منتقص ، ولا لاستزادة مستزيد ، وذلك في مستوى النبوة هو ختم النبوة ، « ومعناه عندنا أن النبوة تمت بأجمعها لمحمد ﷺ ، فجعل قلبه لكمال النبوة وعاء ثم ختم عليها » (ص ٣٤١) وقد خص بذلك نبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء .

فإذا أردنا أن نأخذ هذا المعنى لنختم لنطبقه في مستوى الولاية كان هو ختم الولاية ، ولذلك يوصف خاتم الأولياء بكثير من أوصاف خاتم الأنبياء ، مع ملاحظة هذا الفارق الأساسي ، وهو أن أوصاف خاتم الأنبياء إنما تلاحظ في مستوى النبوة ودائرتها ، وأن أوصاف خاتم الأولياء ـ كذلك ـ إنما تلاحظ في مستوى الولاية ودائرتها ، فتتفق الأوصاف لفظًا ومعنى وتختلف درجة وكيفًا وما صدقا ، لذلك لا نجد تعرضًا حين نراه يصف خاتم الأولياء بنفس الأوصاف التي وصف بها خاتم الأنبياء ، وفي نفس الموضع ، لكنه يعقب فيضعه في موضعه من دائرة الولاية بالنسبة لدائرة النبوة . فيقول عنه « فلم يزل هذا الولي مذكورًا في البدء ، أولا في الذكر ، وأولا في العلم ، ثم هو

---

(١) نوادر الأصول ص ٣٥٩ .

الأول في المشيئة ، ثم هو الأول في المقادير ، ثم هو الأول في اللوح المحفوظ ، ثم الأول في الميثاق ، ثم الأول في المحشر ، ثم الأول في الخطاب ، ثم الأول في الوفادة ، ثم الأول في الشفاعة ، ثم الأول في الجوار ، ثم الأول في دخول الدار ، ثم الأول في الزيارة ، فهو في كل مكان أول الأولياء ، كما كان محمد ﷺ أول الأنبياء ، فهو من محمد ﷺ عند الأذن ، والأولياء عند القفا» (ص ٣٤٥) .

فهنا نجد لخاتم الأولياء نفس الأوصاف التي ذكرها لخاتم الأنبياء ، ولكن في حدود دائرة الولاية .

ولذلك كان حجة الله على أوليائه ، وعلى سائر الأولياء من دونهم «فهو سيدهم ، ساد الأولياء ، كما ساد محمد ﷺ الأنبياء ، فينصب له مقام الشفاعة ، ويثني على الله تعالى ثناء ، ويحمده بمحامد ، يقر الأولياء بفضله عليهم في العلم بالله تعالى» (ص ٣٤٤ ، ٣٤٥).

وقد سار الله تعالى بهذا الولي على طريق الرسول ﷺ ، مختومًا بختم الله ، حتى قعد الشيطان عنه بمعزل ، وأيست النفس منه فبقيت محجوبة ، وقدم هو بكمال الولاية مختومًا ، فصار حجة على الأولياء «بأن يقول الله تعالى لهم : معاشر الأولياء ، أعطيتكم ولايتي فلم تصونوها من مشاركة النفس ، وهذا أضعفكم وأقلكم عمرًا قد أتى بجميع الولاية صدقًا فلم يجعل للنفس فيها نصيبًا ولا تلبيسًا ..... فيقر له الأولياء يومئذ بالفضل عليهم» (ص ٤٢٢) .

ولسنا بحاجة إلى أن نعيد ما لعله قد أصبح واضحًا أن ذلك كله في مجال الولاية ودائرة الأولياء ، أما ما هو أسمى من ذلك فهو مجال النبوة ودائرة الأنبياء ، وسيدها وخاتمها هو الرسول الكريم محمد ﷺ ، فهو سيد ولد آدم ، وسيد أهل الموقف دون منازع . أما خاتم الأولياء فهو سيد من دون الأنبياء ، فالأولياء خلفه درجة درجة ومنازل الأنبياء بين يديه (ص٣٤٥).

والختم يكون ـ إذن ـ بمعنى الكمال ، إما في النبوة بالنسبة لخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وإما في الولاية بالنسبة لخاتم الأولياء .

أما بالنسبة لخاتم الأنبياء فقد ورد النص بذلك ، ولا مرد له ، وأما بالنسبة لخاتم الأولياء ، فمن المعقول تمامًا أن تتسامى درجات الأولياء ومنازلهم في مراتب الكمال ، حتى نصل إلى فرد يحوز قصب السبق من بينهم ، فيكون أكملهم عبودة لربه ، وأعلاهم علمًا بالله ، ويمكن أن نطلق عليه حينئذ إنه خاتم الأولياء .

وعلى الرغم من أنه من أندر النوادر أن يصل إلى منتهى السباق أكثر من فرد بنفس المستوى ، فإنه يظل احتمالاً قائمًا أن يصل إلى هذا المستوى الأخير من مستويات الولاية أكثر من فرد ، ومع ذلك فالحكيم لا يحدثنا إلا عن فرد واحد يصل إلى هذا المستوى ، ولعل ذلك راجع إلى فكرته عن الختم ، فإنه إذا نال هذه المنزلة أكثر من فرد واحد لم يعد خاتمًا ، لأنه وجد لدى غيره ما يوجد لديه .

وهنا تأتي المشكلة التي عبر عنها الدكتور علي عبد القادر وأربري بأنه إذا اعتبرنا الخاتم بمعنى الكامل ، لا الآخر ، فإنه لا يضرنا هذا التفسير في الولاية ، لأن المفروض أن الولاية قائمة إلى قيام الساعة ، ويمكن أن يأتي بعد الولي الكامل أولياء أقل منه كمالاً ، لكن كيف يستقيم هذا المعنى في خاتم الأنبياء؟ وهل يجوز أن يبقى باب النبوة مفتوحًا ، كما أن باب الولاية مفتوح؟؟ هنا لا بد أن نضيف معنى لا يتم معنى الخاتم بدونه ، ذلك المعنى هو الآخر ، فهو مع كونه يعني الكمال يعني الآخرية كذلك .

ولقد يبدو في بعض نصوص الترمذي ما يعارض ذلك ، مثل قوله : فإن الذي عمى عن خبر هذا يظن أن « خاتم النبيين » تأويله أنه آخرهم مبعثًا ، فأي منقبة في هذا ؟ وأي علم في هذا ؟؟ هذا تأويل البله الجهلة » (ص ٣٤١) ، ولقد يظن من يطالع هذا النص أن الحكيم يرى أن الخاتم لا تعني الآخر ، وإنما تعني الكامل فقط[1] ؛ وذلك غير صحيح لأنه في هذا النص

---

(١) وبمثل هذه الثغرة استطاع القاديانية والبهائية أن يخدعوا بعض بسطاء المسلمين وادعوا النبوة لدعاتهم . انظر في ذلك كتاب « القاديانية والبهائية » لمحمد الخضر حسين وكتاب « الرد على أوهام القاديانية » للحافظ التيجاني .

ينعى على هؤلاء الذين يقصرون معنى الخاتم على معنى الآخر ، ولا يرون بجانب هذا المعنى معنى الكامل ، مع أن هذا أولى بالملاحظة والانتباه لأنه هو المعنى الأسمى والأعمق ، أما الآخر فهو المعنى القريب الواضح الذي يقتصر عليه البله والجهلة ـ كما يقول .

يدل على ذلك أنه يفسر الخاتم بمعنى الآخر في مواطن ومناسبات أخرى ، من ذلك قوله في كتاب « أدب النفس »[1] ، عندما قال له قائل : فهل يجوز لأحد أن يفعل على ما يتراءى له في قلبه ؟ أو يقتدي بالخضر عليه السلام فيما يبدو ؟ قيل : لا ، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد ﷺ الرسالة ، ولم يبق في الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون[2].

فإذا سألت : وهل يتخذ هذا المعنى أيضًا بالنسبة لخاتم الأولياء ؟ أجاب بهذا النص الواضح المحدد بالنسبة لكليهما فيقول : أو ليس كائنًا في الزمان من له ختم الولاية ؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف ، كما أن محمدًا ﷺ آخر الأنبياء فأعطى ختم النبوة ، فهو حجة الله تعالى على جميع الأنبياء . فكذلك هذا الولي الذي هو آخر الأولياء في آخر الزمان . (ص٤٣٦)، فخاتم الأنبياء هو آخرهم وأكملهم معًا ، وخاتم الأولياء هو ـ أيضًا ـ آخرهم وأكملهم معًا .

لا ؛ ليست هذه مشكلة حقيقية يمكن أن يناقش فيها الحكيم الترمذي ، لأن الخاتم عنده سواء في النبوة أو الولاية تجمع بين معنيي الكمال والآخرية ، ولا يقتصر على واحد منهما ، فلا خطر ـ إذن ـ من إطلاق هذه التسمية على آخر الأولياء ، إذا ثبت أنه أكملهم أيضًا ، وهذا هو الذي يحتاج

---

(١) ص ١١١ .

(٢) علمًا بأن الدكتور علي عبد القادر وأربري أشارا إلى هذا النص في الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٦ في مقدمتهما لكتاب الرياضة وأدب النفس ، ونلاحظ مثل هذا المعنى في نصوص أخرى سبقت في هذا الفصل .

إلى شيء من المناقشة ، فإن ابن تيمية ـ مثلاً ـ يقول[1] : وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ، فإن فضل محمد ﷺ ثبت بالنصوص الدالة على ذلك . ويقول[2] : وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال : خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه . وهو يرى أن أمة محمد ﷺ أفضل الأمم ، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ ، وأفضل الأصحاب السابقون الأولون ، وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة ، وأفضل الخلفاء الأربعة أبو بكر ، ثم عمر رضي الله عنهم[3].

وبالجملة فإنه يرى أن أصحاب الرسول ﷺ هم أفضل أمته على الإطلاق ، وأن أبا بكر ثم عمر رضي الله عنهما هما أفضل الصحابة ، فكيف نتصور أن يأتي في آخر الزمان من هو أفضل من واحد منهما ؟ ثم إنه من المعلوم أن كل قرن لاحق شر من سابقه ، فكيف يخرج من شرار القرون من هو أفضل ممن أبرزهم خير القرون ؟.

ولم يغفل الحكيم الترمذي مناقشة مثل هذه الآراء ، بل أفاض فيها وعليها من فكره وقلمه ما توج به نظريته ، فهو يرى ـ بالنسبة لعلاقة الولاية بالزمان ـ «أن الولاية والصديقية ليستا من الزمان في شيء» وأنه لو كان هناك ارتباط بين هذه المراتب الروحية وتطور الزمان إلى أسوأ أو إلى أحسن لما أمكن أن يبعث الله رسله في أوقات الفترة والعمى ، وتحكم دولة الباطل والجهالة ، ولكنه أرسلهم حتى نعش الحق وزهق الباطل « فماذا يكبر في الصدور أن يكون في آخر الزمان من يوازي أولهم لحاجة الخلق إليهم !!؟»(ص٤٣٠).

---

(١) الفرقان ص ٨٥ .

(٢) الفرقان ص ٨٣ ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، رواه البخاري في كتاب الشهادات وكتاب فضائل الأصحاب ، وغيرهما ، ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة .

(٣) الفرقان ص ٨٣ - ٨٤ .

إن الذي يكبر في الصدور هو عدم الاستشراف إلى أفق أعلى لكي نرى أن الولي ، وإن يكن مرتبطًا بحياته وجسده بزمنه ومكانه الذي وجد فيه ، إلا أنه مرتبط بقلبه وعقله وروحه بما يسمو على قيود الزمان والمكان ، فلا تحكم عليه البيئة ، ولا يحكم عليه الزمن ، ولا يحكم عليه المكان ، وإن شئت فقل : إنه يحكم على الزمن والمكان والبيئة بما آتاه الله من عطائه ، وما وهبه من منحه ، وتلك هي ـ على الحقيقة ـ معجزة الإيمان . ألم يخرج الله رسوله ﷺ بعد أشد القرون جاهلية ؟ فكان رحمة مهداة ؟ أخرج الناس بإذنه من الظلمات إلى النور ؟ وكان أصحابه الهداة منهم ؟ فهل حكم عليهم الزمان ؟ وهل حكم عليهم المكان ؟ اللهم لا ، بل حكموا هم الزمان والمكان بفضل ولاية الله لهم ، ثم ولايتهم لله .

وعلى ذلك فالخيرية وما دونها لا تحكم على هؤلاء ، وإنما تتعلق بالذين يقعون تحت حكم الزمن فيفيدهم إقباله ، ويعينهم على أنفسهم ، ويضرهم إدباره ، ويعين عليهم أنفسهم ، يقول الحكيم عن ذلك « إن أهل هذا الدين صنفان : صنف منهم عمال الله تعالى ، يعبدونه على البر والتقوى ، فهم محتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق ، لأن تأييدهم من ذلك ، وصنف منهم أهل اليقين ، يعبدون الله على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب واللوذان فيها ، غير ملتفتين إلى إقبال الزمان وإدباره ، ولا يضرهم إدباره ، وهو قول النبي ﷺ : إن لله عبادًا يغذوهم برحمته ، يحييهم في عافية ، ويميتهم في عافية ، ويدخلهم الجنة في عافية ، تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم »[1] ، ويقول « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم حتى تقوم الساعة »[2].

---

(١) انظر هذا الحديث بلفظ مختلف في الجامع الصغير للسيوطي جـ١ ص٧٩ رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر .

(٢) روى مع اختلاف في اللفظ عند البخاري ومسلم عن المغيرة ، وعند ابن ماجه عن أبي هريرة وعند الحاكم في مستدركه عن عمر ، وقال السيوطي في الجامع الصغير إنه صحيح . جـ ٢ ص ١٨٩ .

فولاية الله في مستوى بعيد عن تحكم الزمان والمكان ، لأنها أسمى وأعلى من أن تقع تحت تأثيرهما ، وإذا كان الأمر كذلك لم نحتج إلى إقامة مثل هذه الفواصل الزمنية والمكانية بين أولياء الله ، سواء كانوا في أول القرون أو آخرها ، في شرق الأرض أو في مغربها ، ولكننا نستطيع أن نضعهم جميعًا على نسق فيما بينهم ، لذلك لا يمتنع أن نجد في آخر الزمان من يوازي أولهم ، كما يقول الحكيم ، ويستدل عليه بقوله « ومما يحقق ما قلناه ما حدثنا صالح ابن عبد الله الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره »[1] ، ثم روى بسنده عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جئت من غزوة مؤتة ، قال : ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة ، بكى أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : وما يبكيكم ؟ فقالوا : وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل فينا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تبكوا ، إنما مثل أمتي مثل حديقة ، قام عليها صاحبها ، فاجتث رواكبها ، وهيأ ساكنها وحلق سعفها ، فأطعمت عامًا فوجًا ، ثم عامًا فوجًا ، ثم عامًا فوجًا ، فلعل آخرها طعمًا يكون أجودها قنوانًا ، وأطولها شمراخًا ، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم في أمتي خلفاء عن حواريه » (ص ٤٣١-٤٣٢) وقد روى الحكيم هذا الحديث أيضًا في كتابه « نوادر الأصول » ثم قال « وفي رواية أخرى : ليدركن المسيح من هذه الأمة أقوام إنهم لمثلكم أو خير منكم ، ثلاث مرات ، ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها »[2] ، وقد روى السيوطي في جامعه الصغير (جـ٢ ص١١١) حديثًا مقاربًا عن الحكيم وعن الحاكم في مستدركه عن جبير بن نفير قال : ليدركن الدجال قومًا مثلكم أو خيرًا منكم ، ولن يخزي الله أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم آخرها . وقال عنه إنه حديث صحيح .

---

(١) رواه السيوطي في جـ ٢ ص ١٣٦ من الجامع الصغير عن أحمد في مسنده والترمذي عن أنس ، وعن أحمد في مسنده عن عمار وعن أبي يعلى في مسنده عن علي ، وعن الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وقال عنه إنه حسن .

(٢) ص ١٥٦ .

كما استدل الحكيم أيضًا بما ذكره الله تعالى في كتابه بشأن الفيء عن المهاجرين ، ثم عن الأنصار ، ثم عن الذين جاءوا من بعدهم «فذكر المهاجرين فشهد لهم ، ووصفهم بصدق الإيمان ، فقال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ وذكر الذين تبوءوا الدار والإيمان من قليهم - وهم الأنصار - ووصفهم بالإيثار على أنفسهم ، وبالبراءة من الشح والحسد ، ثم قال ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (الحشر:١٠) فكل من جاء على سبيلهم من بعدهم إلى انقراض الدنيا فهم المذكورون بالمجيء ، وقد جعل الله أيديهم في الفيء شرعًا سواء»(ص٤٣٥).

كما ذكر الله السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان على نسق واحد ، سواء في رضاه عنهم ورضاهم عنه ، فقال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:١٠٠) فجعلهم في الرضا شرعًا واحدًا . (ص ٤٣٦) .

ولقد تسمح النفوس بذلك بعيدًا عن ذكر الأسماء ، حيث لا يهولها أن تجد فضل الله يطبق فيعم الآخرين مع الأولين ، لكننا حين نذكر أسماء مثل أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما يهولنا الأمر ، ولا نتوقع أن يبلغ الحكيم بأحد مبلغهما ، لذلك قال له قائل : فهل يجوز أن يكون في هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ قال : إن كنت تعني في العمل فلا ، وإن كنت تعني في الدرجات فغير مدفوع .

وينبغي أن نذكر هنا رأي الحكيم في أن دخول الجنة وقسمة ما في الدرجات يكون بالأعمال ، أما نيل الدرجات نفسها فيكون بسعي القلوب إلى الله ، لذلك يرى أن رجحان أبي بكر في الميزان على الأمة كان بعمله ، وكذلك رجحان عمر ، رضي الله عنهما ، أما ما في القلوب فإن الميزان لا يتسع له . «قال له القائل : فأين حديث رسول الله ﷺ : خرجت من باب

الجنة ، فأتيت الميزان ، فوضعت في كفة وأمتي في كفة ، فرجحت بالأمة ، ثم وضع أبو بكر مكانه فرجح بالأمة ، ثم وضع عمر مكان أبي بكر فرجح بالأمة ، قال : هذا وزن الأعمال لا وزن ما في القلوب ..... ألا ترى أنه يقول : خرجت من باب الجنة ، فالجنة للأعمال والدرجات للقلوب ، والوزن للأعمال لا لما في القلوب . إن الميزان لا يتسع لما في القلوب ، فالميزان عدله ، وما في القلوب عظمته ، وكيف توزن العظمة؟» (ص ٤٣٧).

أما العمل الذي رجح به أبو بكر الأمة فهو عمله في أهل الردة حيث رد الله به الإسلام على الأمة ، فهذا عمل يوازي عمل الأمة ويزيد ، ويبقى له بعد ذلك عمله لنفسه ، وأما العمل الذي رجح به عمر الأمة فهو أن أبا بكر لم يجد مهلة حتى يبوئ الإسلام ، ويمهد له ، ويوضح السنن ، ويمصر الأمصار ففعل ذلك عمر ، رضي الله عنهما : حتى ورد الخلق بعدهما على أوسع منهاج وأوضحه ، فكل من جاء بعدهما فهو يسير على منهاجهما ، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، فهذه أعمال لم يعد لأحد أن يصل إلى مثلها ، لذلك رجح كل منهما الأمة بهذه الأعمال .

ولكن الأعمال ليست هي الحكم في تحصيل الدرجات ، وإلا فكيف تقدم محمد ﷺ سائر الأنبياء ، وقد كان عمره يسيراً ، لقد تقدمهم بما في قلبه ، لا بالأعمال ، ولو كان بالأعمال لكان عمل عشرين سنة يدق في جنب عمر نوح عليه السلام .

فإذا كان التفاضل بأمر غير الأعمال هو اليقين ، ووصول القلب إلى الله تعالى ، فغير مدفوع أن يكون لمن بعدهما مثلهما أو أكثر منهما ، فمن الذي حرز رحمة الله تعالى ؟ وقصرها عن أهل الزمان ؟ حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ، ولا مجتبى ولا مصطفى ، ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أهل الجنة ليرون أهل الغرف كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء فلا نبلغها ، فقال رسول الله ﷺ :

أولئك رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين[1]. وفي رواية أخرى : إن أهل الغرف ليرون في أعلى الدرجات كما يرى الكوكب الدري في الأفق ، وإن أبا بكر وعمر منهم . فأبو بكر وعمر من أهل الغرف ، وهم أهل عليين المقربون الذين وصفهم الله في تنزيله بقوله ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (الفرقان:٦٣) ثم قال عنهم بعد أن أتم وصفهم ﴿ أُولَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ (الفرقان:٧٥) فهل أخبر في الكتاب أن أهل الغرف كانوا من أوائل الأمة أو من أواخرها ؟ وهل منع الله أن يكون لأحد من الحظوظ مثلما كان لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ هل آيس الله الخلق من بعدهما من ذلك ؟ أو حرز رحمته إلا عنهما ؟ (ص ٤٣٦-٤٤١).

ولقد نجد أن الحكيم الترمذي يقف في مناقشته هذه على أرض صلبة ، سواء على أساس من أصول مذهبه ، أو على أساس من النصوص القرآنية الكريمة والنبوية الشريفة ، بحيث لا نكاد نجد ما يقابلها أو يردها ، ولكن ما يؤيدها أو يتساوق معها .

وهذه الفكرة ـ على كل حال ـ فكرة تقف في وجه المغالاة التي تجعل من رءوس أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضي عنهم ، قممًا تعجز البشر أن يصلوا إليها أو إلى مستواها ، ونحن مع تقديرنا لهم ، ولما بذلوه في تشييد الدين ، أكمل تقدير وأتمه ، نجد أن مثل هذه المغالاة تبث في نفوس العاملين والساعين على سبيل الله شعور اليأس عن الوصول إلى منتهى

---

(١) وقد روى مسلم هذا الحديث الشريف في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ، قال : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين .

الشوط ، وتهيئ لهم وسائل التواكل ، وتمهد أعذار التقصير ، باعتبار أن هؤلاء نماذج لا تتكرر ، وقمم لا تبلغ ، فإذا فتح الباب على مصراعيه لهؤلاء العاملين والساعين أن يسارعوا ويتنافسوا ، واثقين أن باب الله مفتوح لمن يصل ، وأن رحمة الله ليست مقصورة على أهل زمن دون زمن ، أو مكان دون مكان ، لأنها أعم من الزمان ومن المكان ، كما هو الشأن في مذهب الحكيم ، لم يبعد أن تنالهم هذه الرحمة بما نالت به سابقيهم . ولعمرى إنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه هي روح الإسلام التي جعلت من الرسول ﷺ ـ نفسه ـ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، فلم يكن ليوضع الرسول ﷺ موضع الأسوة ثم يقال إن احتذاءها أمر مستحيل ، وإن الوصول إلى أعلى درجات الولاية غير ممكن إلا لهذا الفرد أو ذاك من أصحاب رسول الله ﷺ ..

وإن وصول أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب الرسول ﷺ إلى ما وصلوا إليه من درجات الولاية لا يمكن أن يعتبر حاجزًا بقدر ما يعتبر حافزًا ، فمذهب الحكيم الترمذي ـ في هذه النقطة ـ يعبر أروع تعبير عن روح الأمل في رحمة الله ، والتفاؤل بمستقبل الدين ، والثقة في أمة محمد ﷺ أن تظل معتصمة بالله ، وفية بالعهد ، متمسكة بغاية القصد ، كما ذكر الرسول ﷺ بقوله «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» صحيح متفق عليه عن المغيرة ، وقوله «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها» رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وهو صحيح ، وقوله «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» ، رواه الحاكم في مستدركه عن عمر ، وهو صحيح[1].

---

(١) انظر هذه الروايات في الجامع الصغير للسيوطي جـ ٢ ص ١٨٩ .

وعلى ذلك ، فليس في هذه المسألة أيضًا ما يصح أن نأخذه على الحكيم الترمذي ، إلا أنه يتجاوز هذا الحد إلى مستوى آخر ، فخاتم الأولياء باعتبار أنه آخر الأولياء لا يمكن أن يكون هو أبا بكر أو عمر أو أحد الصحابة الأجلاء ، لأن زمنه متأخر عن زمنهم ، وباعتبار أنه أكمل الأولياء وأفضلهم لا بد أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهم من أجلاء الصحابة ، وهذه هي النقطة التي لا يسهل على مسلم أن يستسيغها ، وكيف نستسيغ ذلك في شأن أبي بكر، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه بقوله ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠) وهو الذي ذكره الرسول ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن عبد الله ـ بقوله : لو كنت متخذًا من أمتي أحدًا خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلا. أو في شأن عمر وهو الذي وافق الوحي قبل نزوله في عدة مسائل ، وهو الذي روت عائشة عن النبي ﷺ أنه يقول : قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ، فإن عمر بن الخطاب منهم . رواه مسلم في صحيحه ، ولقد روى الحكيم نفسه بشأن عمر أن الرسول ﷺ قال : لو كان بعدي نبي لكان عمر[1]. فكيف أمكن له أن يفضل عليه أو على أبي بكر أحدًا من الأولياء بالغًا ما بلغ !!

ولعل شعور الترمذي العميق بذلك يبدو في فلتات القول ، مثل ما حدث عندما سئل عما يصفه بعض الناس أن الولي لا يرى ، وأنه في قباء الله تعالى ، وأنه مبرقع في برقع الله تعالى .... فقال : هذا قول رجل أحمق يتوهم أشياء من تلقاء نفسه ، لم يخطر بباله قط شأن الولاية على وجهه ..... ولو كان كما وصف من شأن الولي لكان له الفضل على الصديق

---

(١) ختم الأولياء ص ٤٤٣ ، وذكر السيوطي في الجامع الصغير أنه قد رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر ، والطبراني عن عصمة بن مالك ، وقال عنه إنه ضعيف .

والفاروق ، فنعوذ بالله أن يكون كما وصف من شأن الولي وصفة الأولياء ، وهذا رسول الله ﷺ رأس الأولياء ، وبعده الصديق رضي الله تعالى عنه ، وبعده الفاروق رضي الله عنه ، فهل كان أحد منهم غامضًا في الناس ؟؟ ، وهذا معناه أنه لا يفضل على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ـ غير الرسول ﷺ ـ أحدًا من الأمة ، فكيف يتم له ذلك وهو يفضل عليهما خاتم الأولياء ؟ إلا أنه قد يعتذر عنه بأنه ضرب بهما المثل لسائله لأنهما أفضل الأولياء عنده ، أو لأنهما أفضل الأولياء إلى عهده ، وقبل ظهور خاتم الأولياء .

وقد ناقشه ابن تيمية في ذلك فقال[1] : وهو ، أي الحكيم الترمذي ، رحمه الله تعالى ، وإن كان في فضل ومعرفة ، ومن الكلام الحسن المقبول ، والحقائق النافعة أشياء محمودة ، ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده ، ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية ، مثل دعواه فيه أن يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما ، ثم إنه تناقض في موضع آخر لما حكى عن بعض الناس إن الولي يكون منفردًا عن الناس ، فأبطل ذلك واحتج بأبي بكر وعمر ، وقال : يلزم هذا أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر ، وأبطل ذلك .

ولقد ذكر الحكيم نفسه في مناسبات أخرى أن رجحان أبي بكر لم يكن راجعًا إلى عمله بقدر ما كان راجعًا إلى ما وقر في قلبه ، وكذلك عمر ، رضي الله عنهما[2].

---

(١) حقيقة مذهب الاتحاديين ص ١١٥ وقد نقله الدكتور عثمان بن يحيى في ملحق بكتاب « ختم الأولياء » ص ٥٦٥ .

(٢) انظر « الصلاة ومقاصدها » ص ٥٧ وعلل العبادات ص ١٧١ أ ـ ب .

وقد روى ابن ماجه بسنده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا علي ما داما حيين . وقد روى ابن ماجه بسنده مثل هذا الحديث عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه ، الحديثان برقم ٩٥ و ١٠٠ بالجزء الأول من سنن ابن ماجه ص ٣٦و ٣٨ .

على أننا بعد أن أزلنا فواصل الزمان والمكان بالنسبة للولاية لم يعد أمامنا أن نستنكف من أن يكون أفضلهم هو أولهم أو آخرهم، وليس هذا الحكم لنا، لكنه إذا وجد نص تمسكنا به، وقد وردت أمثال هذه النصوص التي ذكرناها في شأن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يعد لنا محيص عنها، ولعل الحكيم الترمذي قد اعتمد في شأن خاتم الأولياء على نصوص لم نطلع عليها، كانت أصرح في مضمونها من هذه الأحاديث التي رواها، مثل ما رواه عن عبد الرحمن بن سمرة من قول رسول الله ﷺ «فلعل آخرها طعمًا يكون أجودها قنوانًا، وأطولها شمراخًا، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم في أمتي خلفاء عن حواريه» ومثل ما رواه من قوله «ليدركن المسيح من هذه الأمة أقوام إنهم لمثلكم أو خير منكم، ثلاث مرات» وقد روى الحاكم وصححه عن جبير بن نفير عن رسول الله ﷺ «ليدركن الدجال قومًا مثلكم أو خيرًا منكم، ولن يخزي الله أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم آخرها».

ومثل هذه الأحاديث تمهد لفكرة الحكيم عن خاتم الأولياء، وتقدم احتمالاً كبيرًا لا يسوغ إغفاله أو نفيه أو إنكاره، خاصة وأن النصوص التي وردت بشأن أبي بكر وعمر ليست في تفضيل أحدهما بإطلاق، بل في ذكر فضائلهما، وإن تكن فضائل يعسر أن يلحق بها أحد.

من هذا يتبين أن مهاجمته واتهامه لا يستندان على أساس في أي نقطة أو وجه من وجوههما، حتى في تفضيله خاتم الأولياء على صحابة رسول الله ﷺ، فإنه احتمال ممكن سواء من الناحية العقلية أو الناحية السمعية، وإن كان إثباته صعبًا عزيزًا.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن عسى أن يكون ختم الأولياء عند الحكيم الترمذي؟ إنه يقول: إنه إذا «أتى وقت زوال الدنيا ابتعث الله وليًا اصطفاه

واجتباه ، وقربه وأدناه ، وأعطاه ما أعطى الأولياء ، وخصه بخاتم الولاية» (ص٣٤٤) ، ولقد بلغتنا الأخبار الصحيحة في شأن نزول عيسى عليه السلام قبل قيام الساعة ، فهل هو المقصود بذلك ؟ لقد سئل الحكيم عن صفة ذلك الولي الذي له إمامة الولاية ورياستها وختم الولاية ؟ فقال : ذلك من الأنبياء قريب يكاد يلحقهم ، ثم وصف مقامه بأنه في أعلى منازل الأولياء في ملك الفردانية ، وله خزائن السعي ، لأن مقامه في خزائن المنن التي للأولياء ، ومتناوله من خزائن القرب التي للأنبياء ، فهو في السعي أبدًا ، قد انكشف له الغطاء عن مقام الأنبياء ومراتبهم وعطاياهم وتحفهم» (٣٦٧ ، ٣٦٨) . ومقتضى ذلك أنه ليس بنبي ، بل هو قريب المنزلة من منزلة النبوة ، ولذلك لا يجوز أن يكون هو عيسى عليه السلام ، لأن نبوته لم تفارقه ، وإن انطوى حكمها في حكم نبوة محمد ﷺ ، وقد نال مراتب النبوة وخزائنها ، وليس من المعقول أن يسلبها ليكتفي في تشريفه وتكريمه بلقب خاتم الولاية الذي يقف من مراتب النبوة على أعتابها .

ولقد يشتبه الأمر على من يقرأ للحكيم مثل قوله : فالمحدثون لهم منازل فمنهم من أعطى ثلث النبوة ، ومنهم من أعطى نصفها ، ومنهم من له الزيادة ، حتى يكون أوفرهم حظًا في ذلك من له ختم الولاية ، فعيسى عليه السلام هو أوفرهم حظًا من النبوة ، ويحق لذلك أن يكون هو خاتم الأولياء !؟ لكن ذلك لا يستقيم مع النص السابق والنصوص المماثلة له ، من حيث إن خاتم الولاية إنما يكون في حدود دائرة الولاية ومستواها ، دون أن يتخطاها إلى مستوى النبوة .

وأما قول الحكيم بأن منهم من أعطى ثلث النبوة أو نصفها أو أكثر أو أقل ، فليس المقصود بذلك النبوة بمعناها المطلق الذي هو قبول الوحي ، ولكن بمعنى أخلاق النبوة ، فقد قال له القائل : « إني أهاب القول أن يكون لأحد من النبوة شيء سوى الأنبياء ، قال : ألم يبلغك حديث رسول الله ﷺ

أنه قال : الاقتصاد والهدى والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءًا من أجزاء النبوة ؟ فإذا كان المقتصد لـه مـن أجـزاء النبـوة مـا ذكـر فمـا ظنـك بالسابق المقرب ؟؟ . وليس يبلغ الولي ـ مهما أوتي من أجزاء النبوة ـ درجة الوحي ، لكنه قد يبلغ درجة الحديث ، فلا تجتمـع أجـزاء النبـوة لفـرد غـير الأنبياء عليهم السلام ، لكن أجزاء الولاية تجتمع لمن بلغ من الأولياء درجة ملك الملك بين يديه ، حتى كان في قبضته ، ثم يكون سيدهم هو الذي نـال كل هذه الأجزاء وختم له عليها ، فعيسى عليه السلام أسمـى مـن أن يكـون خاتم الأولياء بهذا المعنى ، وإنما هو عند الحكيم رجل من رجال هذه الأمـة أوتي النبوة من قبل ، واندرج حكم نبوته في نبوة محمد ﷺ .

فهل كان الحكيم يقصد بذلك نفسه ؟ إننا لم نعثر فيمـا اطلعنـا عليـه مـن كتبه ورسائله على ما يشير إلى نحو ذلك .

هل كان يقصد المهدي كما تقول بـه الشـيعة ؟ إن هنالـك نصًّـا لا يحـدد ذلك تمامًا ، ولا يفصل في هـذا الأمـر ، بـل يتركـه مبهمًـا يحتمـل الأمـرين بدرجة سواء، يقول في هذا النص : فمن الذي حرز رحمة الله تعالى عن أهل هذا الزمان ؟ حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ، ولا مجتبى ولا مصطفى ؟ أو ليس المهدي كائنًا في آخر الزمان ؟ فهو في الفترة يقوم بالعدل فلا يعجز عنه ؟ أو ليس كائنا في الزمان من لـه خـتم الولايـة ؟ وهـو حجـة الله علـى جميع الأولياء يوم الموقف . (ص ٤٣٦) ففي هـذا الـنص يسـتوي قـول مـن يقول : إن الحكيم يفرد كلا منهما ، مما يدل على تغايرهما عنـده فالمهـدي شخص آخر غير ختم الولاية عنده ، وقول من يقول : إن الحكيم قد قرنهما في نص واحد في معنى واحد ، لهدف واحد ، وغاير في الأسماء ليـدل علـى اتحاد المسمى ، فالمهدي وختم الولاية شخص واحد عنده .

وحتى تتحقق هذه المسألة عندما نعثر له على نص أوضح وأصرح نود أن نختم هذا الفصل بهذا الوصف الرائع الذي وصفه الحكيم به فقال[1] :

وذاك عبد قد ولى الله استعماله ، فهو في قبضته يتقلب ، به ينطق ، وبه يبصر ، وبه يبطش، وبه يعقل ، شهره في أرضه ، وجعله إمام خلقه ، وصاحب لواء الأولياء ، وأمان أهل الأرض ، ومنظر أهل السماء ، وريحانة الجنان ، وخاصة الله ، وموضع نظره ، ومعدن سره ، وسوط الله في أرضه ، يؤدب به خلقه ، ويحيي القلوب الميتة برؤيته ، ويرد الخلق إلى طريقه ، وينعش به حقوقه ، مفتاح الهدى ، وسراج الأرض ، وأمين صحيفة الأولياء ، وقائدهم ، والقائم بالثناء على ربه بين يدي رسول الله ﷺ ، يباهي به الرسول ﷺ في ذلك الموقف ، وينوه الله باسمه في ذلك المقام ، ويقر عين الرسول به ﷺ ، قد أخذ الله بقلبه أيام الدنيا ، ونحله حكمته العليا ، وأهدى إليه توحيده ، ونزه طريقه عن رؤية النفس وظل الهوى ، وائتمنه على صحيفة الأولياء ، وعرفه مقاماتهم ، وأطلعه على منازلهم ، فهو سيد النجباء ، وصالح الحكماء ، وشفاء الأدواء ، وإمام الأطباء ، كلامه قيد القلوب ، ورؤيته شفاء النفوس ، وإقباله قهر الأهواء ، وقربه طهر الأدناس ، فهو ربيع يزهر بنوره ، وخريف يجتنى ثماره ، وكهف يلجأ إليه ، ومعدن يؤمل ما لديه ، وفصل بين الحق والباطل ، وهو الصديق والفاروق والولي والعارف والمحدث وواحد الله في أرضه .

* * *

(١) نوادر الأصول ص ١٥٧ - ١٥٨ وانظر أيضًا ص ١٠٩ - ١١٠ وص ٤٠٦ من ختم الأولياء .